الأســرة في الإســلام

محاضرة للأخت الشهيدة
بنان الطنطــاوي العطــار
في أوائل الســـــبعينات

(١)

الأسرة هي المجتمع الصغير الذي يتربى فيه الإنسان ، وينشأ من أول عهده بالحياة في أحضانه ، وينطبع بطباعــه ، ويرى الأشياء بعينه ، ويتعرفها عن طريق أحكامه وميوله واتجاهاته ومالَهُ من إيحاء حين يستحسن ما يراه حــسناً ، أو يستقبح ما يراه قبيحا .

ولذلك أدرك علماء الاجتماع أن البيت هو الينبوع الأول الذي يمدّ الأمة بالرجال والنساء ، وأنه إذا كان هــذا الينبوع طيباً صافياً خالياً من الشوائب المفسدة كان إمداده خيراً على الأمة ، وزاداً لها من الأفراد الصالحين الطيــبين الذي يصبحون في مجتمعها الأكبر لبنات قوة ، وحلقات تعاون ، ودعاة فضيلة ، ودعائم نظام ، ومصادر ســعادة .. وإذا كان هذا الينبوع مشوباً بالشوائب ، قائماً على الفوضى والإهمال ، فإن إمداده يكون شرّاً على الأمــة وخطــراً على مقوماتها ، ونكداً ووبالاً على مجتمعها .

إنّ معنى الأسرة في العرف الاجتماعي الشائع هو المجموعة الصغيرة المكوّنة من الزوجين والأبناء . وأساس هــذه الأسرة الزوجان المكونان من رجل وامرأة ، وهم اللذان يقومان بالدور الرئيسي الفعال في التكوين والتنظيم والرعاية من البداية إلى النهاية .

والمجتمع بعد ذلك هو مجموع هذه الأسر ، وهي لبناته التي يقوم عليها وينمو بها ، ويحصل له منها الامتداد الأفقي حتى يصير شعباً ، والرأسي حتى يظلّ تاريخاً لمن جاء بعده

فالأسرة إذن هي نواة المجتمع البشري ، وتقدر سعادة البشر في الأحوال العادية بالسعادة التي ترفرف على الأسرة ، والاستقرارُ العائلي دليل استقرار المجتمع ورقيّه

فالعناية بالأسرة ، والاهتمام بها ، وحياطتها بكل أسباب التكريم والتقويم له آثاره الكبيرة في المجتمع ، خصوصاً إذا كان المجتمع يعيش في مجمله في نفس الإطار الذي تنشأ فيه الأسرة بدون ازدواجية في الشخصية الاجتماعية ، وبدون تناقضات بين ما تتطلبه حياة الأسرة وبين ما يتفاعل في واقع المجتمع

وقد اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بشأن الأسرة وأسس تكوينها ، وأسباب دوام ترابطها ، وأدائها لوظيفتها على خير وجه وأكمله ، فما ترك القرآن والسنة صغيرة ولا كبيرة يكون فيها سعادة الأسرة واستقرارها إلاّ وبيّنها تفصيلاً ، أو بيّن الأصل الذي تندرج تحته هي ومثيلاتها

و لم يكتف الإسلام بتوضيح الحقوق والواجبات التي لكلٍّ حيال الآخر أو الآخرين ، فإن ذلك وحده بالنسبة لأخطر نواة في بناء المجتمع لا يكفي ، إنما اهتم القرآن والسنة بوضع الأسرة كلها في بوتقة تنصهر فيها الأثرة والأنانية وتذوب فيها صفات القهر والغلبة والقسوة ، حين تتبخر من حياتها ، وتصفى من شوائب الكدر والنكد ، والتعالي والتفاخر والإهمال والتباعد ، إلا ما كان لماماً ، ثم يعود الأمر إلى حاله السوي .

ولما كانت الأسرة تتألف أول ما تتألف من الرجل والمرأة ، كان على كلّ منهما أن يحسن اختيار الآخر ، الزوجية في الإسلام اجتماع سكن واستقرار ، ومودة ورحمة تذكرها الآية الكريمة :

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً** ... ﴾ [الروم : ٢١]

ويقول تعالى :

﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ... ﴾ [الأعراف : ١٨٩]

فجُعلت في هاتين الآيتين غاية الزواج ، أن يسكن كلّ من الزوجين إلى الآخر ويطمئن ويستريح لوجوده .. ولا تكون حالة السكن هذه ، وحالة الاطمئنان والراحة في اجتماع أحد بآخر إلاّ إذا كان هنالك انسجام بينهما ، واقترب كل منهما نحو الآخر بمفاهيمه وسلوكه وطريقته في الحياة .

ثم إنّ مما يساعد على الاحتفاظ بالانسجام بين الزوجين وإدامته ، أن الحقوق والواجبات الزوجية متكافئة ومتعادلة بحسب طبيعة كل منهما . للزوج حقوق وواجبات ، وللزوجة حقوق وواجبات ، وكل واحد من هذه الحقوق والواجبات متكافئ ومتعادل مع الآخر ، ومعنى التكافؤ والتعادل هنا : أن الحياة الزوجية لتصل إلى غايتها وهي السكن والمودة والانسجام ، لا بد من إسهام الرجل والمرأة فيها سواء بسواء ، ولا بد من إفادة كل منهما معاً بهذه العلاقة ، لا يضارّ الرجل بالعلاقة الزوجية فيؤدي ما عليه دون مساهمة من المرأة فيها ، ولا تضارّ المرأة فتؤدي ما عليها دون مساهمة من الرجل فيها .

وهذا التكافؤ في الحقوق والواجبات هذا الذي تشير إليه الآيتان الكريمتان :

﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ... ﴾ [النساء : ٣٤]

وقوله تعالى :

﴿ ... **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ... ﴾ [البقرة :٢٢٨]

والمراد بالتماثل في الحقوق والواجبات هو التكافؤ والتعادل بينهما ، وليس أن تكون كل حقوق الرجل وواجباته هي ذات حقوق المرأة وواجباتها ، فالرجل عليه الإنفاق مثلاً وعلى المرأة رعاية ولدها وتنشئته وحمله .. وهكذا . أما درجة التفضيل على النساء في الآية الثانية ، فنسبتها إلى الرجل لا تخرج دوره في الحياة الزوجية عن أن يكون مسهماً لتعادل هذه الحياة وانسجامها ، وهي كذلك ضرورة إنسانية لصالح الزوجية ، وليست مظهراً على حسابها وفي سبيل تقويضها .

ولقد عنيت سورة النساء بالحياة الزوجية عناية كبيرة من حيث حسن المعاشرة ، فأوجب الله معاشـــرة النـــساء بالمعروف وبيّن أن عاطفة الحبّ أو الكره ليستا دائماً أمارة على المستقبل السعيد أو الشقي ، وذلك قوله تعالى :

﴿ ... **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النـــساء :١٩]

كما عنيت ببيان الأساس الذي يجب أن تقوم عليه حقوق كلّ من الرجال والنساء ، فبيّنت أن للرجل على المرأة حق الرياسة وواجب النفقة ، وعليها أن تطيعه وتحفظ غيبته ، ونقرأ في ذلك قوله تعالى :

﴿ **وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَـــسَبْنَ** ... ﴾ [النساء :٣٢]

وقوله تعالى :

﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** ... ﴾ [النساء :٣٤]

وتتلخص الأحكام التي جاءت بها هذه الآيات :

١- على الرجل أن يعاشر زوجته بالمعروف

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوف ﴾

وعن أبي هريرة ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ** » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

٢- على المرأة أن تطيع زوجها ، وأن تحفظ كل ما أمر الله بحفظه في نفسها وبيت زوجها فقد جعلها الله أمينة على ذلك

﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « **لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا** » رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

٣- على الرجل والمرأة كليهما أن يرضخا لحكم الله في تهيئة كلّ منهما على الوضع المناسب للمقصود منه . فلا يتطلع النساء إلى ما خصّ الله به الرجال وجعلهم مفضلين فيه ولا يتطلع الرجال إلى ما خص الله به من النساء وجعلهن مفضلات فيه . وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾

وللمرأة دورها العظيم في المجتمع أيضاً كما للرجل دوره ، وإن تميّزت المواقف .

وإننا لنرى القرآن يصوّر كيف يتعاون الرجال والنساء في المجتمع المسلم على تحقيق الأهداف وبلوغ الغايات ، وكيف يسمو بالمرأة إلى آفاق كريمة في الدعوة إلى الخير ، ومحاربة الشرور ، لا أن تصير هي نفسها جانباً من شرور المجتمع ، كما هو الشأن في المجتمعات التي يشيع فيها الانحلال :

يقول الله ﷻ :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ... ﴾ [التوبة : ٧١]

فالمرأة المسلمة مع الرجل المسلم تعيش لرسالة كبرى ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وهي الرسالة الكبرى للمجتمع المسلم التي ميّزه الله بها ، وكلّفه أن يحملها في كل عصر .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ... ﴾ [آل عمران : ١١٠]

فإذا شاركت المرأة المسلمة الرجل المسلم في القيام بهذا العبء الجليل فقد صارت مسؤولة عن الأهـــداف العليـــا للمجتمع الذي تعيش فيه ، وصارت مطالبة بالاستعداد لتتمكن من حمل ذلك الواجب الثقيل

وقد أحست المرأة المسلمة بهذا العبء ورضيت بهذا التكليف في العصور الواعية في تاريخ الإسلام ، وخاصـــة في العصر الأول لمجتمع الإسلام لقد كان الجهاد في سبيل الله لتحقيق الحرية والأمن للمجتمع هو القـــضية الأولى الـــتي شغلت المسلمين في المدينة ، و لم تَعفِ المرأة المسلمة نفسها من عناء الجهاد وثقل أعبائه ، فإذا هي تغشى الميادين ، تمد وتسقي وتضمد ، وأحياناً تباشر القتال وتقف في وجه الأعداء

ففي غزوة أحد كان للنساء المسلمات دورهن البارز في معاضدة المجاهدين والوقوف وراءهم ، وتعهد حاجـــاتهم أثناء الجهاد ، وكان لبعض المسلمات شرف القتال في هذه الغزوة

وكذلك كان الأمر في غزوات أخرى ، مثل الخندق وحنين وكان بعضهن يغشين مجالس الرسول ﷺ ويردن أن يكلّفن بالجهاد كالرجال سواء بسواء

وقالت إحداهن : يا رسول الله ، ذهب الرجال بالأجر !! يقاتلون في سبيل الله ولا نقاتل !!

وعجب الرسول صلوات الله عليه من هذه الروح المستبسلة وهذا الموقف الذي يكشف عن درجة ســـامقة مـــن الإيمان والعلم هذا الإدراك الجديد للقيم التي أحلّها الإسلام في المجتمع العربي محلّ القيم المادية الجاهلية

وكشف لها النبي صلوات الله عليه عن الحقيقة التي يقرها الإسلام ، احتراماً لحفظ الفطرة وتطلباً لأمن المجتمـــع ، وهي أنه يرى أن القتال لا ينبغي أن يفرض على المرأة وهي رقيقة العاطفة ، مرهفة المشاعر ، وأنّ بحـــسبها أن تـــسدّ الثغور في الداخل ، وتحقق الطمأنينة والسعادة للمقاتلين بحسن تعهدها لزوجها وأبنائها ، وأنّ ذلك مساوٍ تماماً لمرتبـــة الجهاد ، فهو تحقيق للتوازن ، وتقسيم للأعباء ، حسب الطاقة والاستعداد ..

ويتضح من ذلك أنّ المجتمع المسلم لا يرى إعفاء المرأة من التفكير والبحث في أحوال مجتمعها ، بل هذا يلزمها أن تدرك أنها متضامنة مع الرجل في تحقيق غايات المجتمع والوصول إلى أهدافه

ولا يكون اهتمام المرأة بمشكلات المجتمع أو مشاركتها في علاج أمراضه ، بأن تزور مجالس الرجال ، متكـــشّفة فاتنة عاملة تطالب بالمساواة ..

إنّ مؤسسات التربية أو دور الحضانة لتعجز تماماً أن تصل في التوجيه والتربية إلى المستوى الذي تصل إليـــه الأم الصالحة بفطرتها وعاطفتها

وإن المجتمع المسلم صادق كل الصدق حين يبصّر المرأة أن ميدانها الرحيب الذي يشكر فيه جهادها ، ويقدّر بذلها هو ميدان الزوج والولد أولاً وقبل كل شيء ، حيث تسهم حقاً في تكوين المجتمع المستقر المتوازن الذي لا يختلّ فيه بناء ، ولا ترجح كفّة على حساب أخرى ..

لقد صدق رسول الله صلوات الله عليه حين أجاب المرأة المسلمة المتحمسة للجهاد . بأن حسن قيامها بواجبـــها تجاه أسرتها يعدل درجة الجهاد في سبيل الله

ولئن كان انضمام النساء إلى صفوف المقاتلين يزيدهم بضعة آلاف في العدد ، إلاّ أن قاعدة المجتمع ، بـــل قلبـــه وروحه ستصاب بالوهن والخسران حين يفقد المجتمع الأمّ الحنون ، والزوجة الصالحة .

للبحث صلة ..

من المراجع التي استفدت منها واقتبست :

(القرآن الكريم)

(صحيح البخاري)

(صحيح مسلم)

(رياض الصالحين)

(سيرة ابن هشام)

(المجتمع الإسلاميّ) للدكتور مصطفى عبد الواحد

(منهج التربية الإسلاميّة) للأستاذ محمد قطب

(السلوك الاجتماعي في الإسلام) للأستاذ حسن أيوب .

(حقوق الإنسان في الإسلام) للدكتور علي عبد الواحد وافي

(الإسلام في حياة المسلم) للدكتور محمد البهي

(الإسلام والمرأة المعاصرة) للبهي الخولي

(روح الدين الإسلاميّ) لعفيف عبد الفتاح طبّارة

(المجتمع الإسلاميّ كما تنظمه سورة النساء) للشيخ محمد محمد المدني

(الجزء السادس من فقه السنة) لسيد سابق .